قراءة الرواية .. وسيلة لفهم الشأن العام

سعد محمد رحيم

١.

في كتابه (كلام في السياسة: قضايا ورجال.. وجهات نظر) يستشهد الأستاذ محمد حسنين هيكل بهذه المقولة للأكاديمي والدبلوماسي السوري ثابت العريس؛

"عندما أريد أن أبحث عن الحقائق الأولى في حياة أي بلد، وعن القواعد السياسية القادرة على تفسير توجهاته - فإنني لا أعتمد كتب التاريخ الموثقة ولا المذكرات السياسية الضافية - وإنما أتوجه مباشرة إلى الأدب، أسمع من الشاعر والقصاص والروائي أولاً، وبعد ذلك يجيء الدور على المؤرخ والسياسي والدبلوماسي".

ولأن الأستاذ هيكل كان مهتماً، في حينها، بالشأن اليوجوسلافي نصحه العريس بقراءة رواية (جسر على نهر درينا) لإيفو أندريتش. وفعلاً قرأ هيكل الرواية بترجمتها الإنكليزية في عام ١٩٦٠ بناء على تلك النصيحة. ثم عاد وقرأ الرواية ثانية وهو بصدد كتابة مقالة موسعة عن يوغوسلافيا وهي في طور التفكك في نهاية التسعينيات، وهذه المرة بناء على نصيحة الرحالة والدبلوماسي (فيتز روي ماكلين) صاحب كتاب (مقتربات شرقية). وفي مقالته المذكورة وعنوانها (بقايا يوغوسلافيا: من البوسنة إلى كوسوفو.. من الأساطير إلى الصواريخ) لخص هيكل بعض أحداث الرواية بما يفيد ويغني موضوعته، قائلاً أن بطل الرواية ليس شخصاً وإنما هو جسر والوقائع فيها "حركة تاريخ تحتشد تياراته، وديناته، وثقافاته، وإمبراطورياته، وصراعاته، وجيوشه، على ضفتي نهر شاءت مقاديره أن تجعل منه خطاً فالقاً وفاصلاً بين عالمين أو بين عوالم كثيرة زاحفة نحوه من كل الاتجاهات، متلاقية عند النهر، في حالة مواجهة بالتصادم على جانبي ضفافه، حتى كاد الدم المسفوح في مجرى النهر أن يكون أكثر من ماء الثلوج الذائبة فيه".

حين كنت أقرا في مقالة الأستاذ هيكل التي كتبها بأسلوبه السلس والممتع المعهود وبالشكل الذي أسماه (المقال المسترسل؛ narrative article) تساءلت؛ فيما إذا كان الأستاذ قد قرأ أياً من الروايات العراقية، هو الذي كتب كثيراً عن قضايا العراق ولاسيما في كتابيه (حرب الخليج: أوهام النصر والقوة) و (الإمبراطورية الأمريكية والإغارة على العراق)، وفيما إذا كانت هذه القراءة (إن حصلت فعلاً) أعانته بأي شكل في أن يغوص، وعلى حد تعبيره؛ "إلى الأعماق ويجوس هناك الكوامن التي يمكن أن نسميها روح الأمم، وينفذ إلى الخلايا التي تحتفظ وحدها بسر الحياة في عمر وطول بقائها"؟.

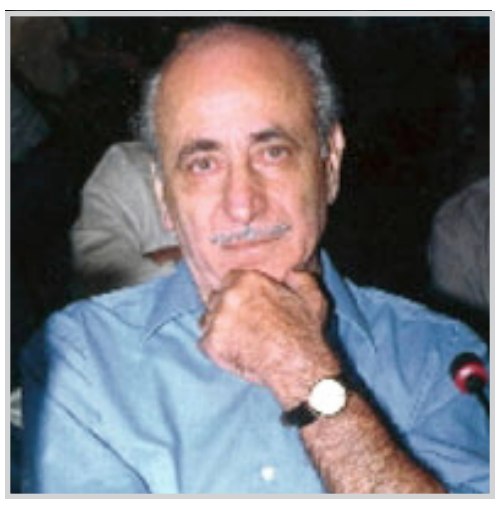

٢.

تواجهنا في هذا السياق جملة أسئلة منها؛ هل استطاعت الرواية العراقية بمنجزها المنشور خلال ما يقارب القرن أن تعكس صورة عالمنا (العراقي)، هل تشف قراءة روايات عراقية بعينها روح هذا العالم بعمق وصدق؟ والباحث الذي يهمه الشأن العراقي هل سيعثر في نماذج من الرواية العراقية على ما يعرّفه بالشخصية العراقية؛ روحها وتاريخها وطبيعتها ومزاجها وخفاياها في التفكير والشعور والإحساس؟ وهل يمكننا الإشارة من غير تردد إلى عدد من هذه الروايات؟. كم من هذه الروايات وما هي؟.

هل تشبع قراءة رواية (جلال خالد) لمحمود أحمد السيد، في سبيل المثال، فضولنا بالإطلالة على جوانب من حال وظروف عراق العشرينيات من القرن العشرين؟ هل تقودنا قراءة رواية ذو النون أيوب (الدكتور إبراهيم) إلى الولوج في قلب عراق الثلاثينيات والأربعينيات؟ هل تعكس رواية (الوجه الآخر) لفؤاد التكرلي وضع العراق الاجتماعي في الخمسينيات؟ هل تعيننا قراءة (الركض وراء الذئاب) لعلي بدر على استيعاب فاصلة مؤشكلة من تاريخنا السياسي المعاصر بعمق؟.

مع طرح مثل هذه الأسئلة نجد اننا أمام معضلة وظيفة الرواية وعلاقتها بالواقع الاجتماعي التاريخي، وإلى أي مدى تتمفصل الكتابة الروائية مع حركة التاريخ الاجتماعي وأين تفترق عنها؟. وقد تكون هذه الأسئلة وغيرها مفاتيح لدراسة الرواية العراقية من منظور كونها جزءاً من معطى ومنجز فكر النهضة الذي بزغ منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر وراح ينمو ويثمر في النصف الأول من القرن العشرين بالتناظر والتعاكس مع فكر النهضة في تركيا أواخر العهد العثماني أولاً ومن ثم في البلدان العربية، ولاسيما في مصر والشام ولبنان. ولم تكن مصادفة محضاً أن تكتب الرواية والقصة الفنية في العراق بعد تأسيس الدولة العراقية الحديثة، وأن تطلع أجيال من كتاب السرد طوروا تقنياتهم وأساليبهم ورؤاهم التي تبلورت وتنوعت وأفرزت نماذج متباينة في قيمتها الإبداعية، حتى ليمكننا - بقليل من التحفظ - أن نتحدث عن رواية عراقية لها نكهتها وتقاليدها المميزة ما تزال تُكتب وستبقى.

إن المتغيرات التي مهدت لازدهار الرواية العراقية فضلاً عن تكوين الدولة وقيام مؤسساتها هي نشوء المدينة العراقية بعمارتها وطبقتها الوسطى ومؤسساتها وهوامشها وهي تحاول أن تجد لها منظومة اجتماعية مختلفة عما هي موجودة في البادية والريف، وعلاقات إنتاج هيأتها ارتباط الاقتصاد الوطني بالسوق الرأسمالية العالمية. إلى جانب ما حصل من حراك سياسي واجتماعي (التطلع إلى الاستقلال، مكافحة التخلف، دعوات تحرير المرأة، نشوء الأحزاب السياسية، الانقلابات العسكرية، اكتشاف النفط، حركات التمرد المدني والأهلي، انتشار التعليم، تطور أنماط الثقافة ووسائط الاتصال، الهجرات في الداخل وإلى المنافي، الخ)..

بيد أنها، بالمقابل، حركة تاريخية متقلبة، لا تكاد تعرف الاستقرار، وهذا واحد من العوامل المعيقة لازدهار كتابة الرواية في العراق حيث يحتاج الكتّاب إلى فسحات زمنية هادئة لالتقاط الأنفاس، والتأمل العميق في ما جرى.. فسحات ضرورية لم تتوفر لهم بعد.

٣.

ربما يمكن تصنيف كثر من الروايات العراقية الحديثة، وفي أفضل نماذجها، تحت خانة ما يُسمى بتيار الواقعية الاجتماعية حيث تتضمن الرواية رؤية اجتماعية وسياسية ناقدة لتاريخ البلد الحديث والمعاصر بما انطوى عليه من تناقضات وصراعات وتحولات على الرغم من اختلاف الأساليب التي كتبت بها. وحتى تلك الروايات التي حاولت أن تتلبس بلبوس الحداثة، أو التي استعارت تقنيات وأساليب بعض المدارس مثل الواقعية السحرية فإنها، في الغالب، حرصت على طرح رؤية (سياسية اجتماعية) لواقع حي ملتبس، شديد التعقيد هو الواقع العراقي.. هذا ينطبق، في سبيل المثال، على روايات غائب طعمة فرمان وفؤاد التكرلي ومهدي عيسى الصكر وعبد الرحمن مجيد الربيعي وأحمد خلف ونجم والي وعلي بدر، كما ينطبق على روايات عبد الخالق الركابي على الرغم من أن المساحة السردية التي يتحرك عليها الركابي تبتعد أعمق في التاريخ وتحاول أن تضفي عليها نوعاً من غرائبية الواقعية السحرية ولكن بنكهة عراقية، بدءاً من رواية (من يفتح باب الطلسم) وانتهاء برواية (سابع أيام الخلق).

إن زمن السرد في روايات معظم الأسماء التي ذكرناها، إلى جانب أسماء أخرى، يتكافأ ويتقاطع مع الزمن التاريخي (الواقعي). فقارئ هذه الروايات لن يستطيع أن ينغمس في قراءتها من دون أن يستحضر أحداث ووقائع تاريخ العراق، ولاسيما في القرن العشرين. وهذا لا يلغي بطبيعة الحال إمكانية تلك القراءة النقدية التي تحلل النص الروائي في بنيته الفنية باستقلال عن بنى وإرهاصات الواقع والتاريخ.

أعتقد أننا نظلم الرواية العراقية إذا قلنا أنها لم تصور، وبنماذج متباينة في قيمتها الفنية ونضج رؤاها، الواقع وحراك المجتمع العراقي، ولم تعكس شيئاً من روح الأمة العراقية. ولذا، وعوداً على بدء، لابد أن يطّلع أي باحث في الشأن العراقي على روايات عراقية بعينها ليفهم تعقيدات وخفايا التاريخ العراقي الحديث، وإلاّ فسيكون ثمة قصور في فهمه.

تلويحة المدى

فكرة أدب الداخل وأدب الخارج ليس رديفاً لتقسيم البلد

شاكر لعيبي

كان المثقفون العراقيون يعيشون نوعاً من الاغتراب الروحي في داخل بلدهم أثناء صعود نجم نظام شمولي لم ير تاريخ البلد له مثيلا. شكلت فترة السبعينيات بداية قوية لحداثة ثقافية واجتماعية باهرة. على المستوى الشعري طلع جيل منافس قوي لجيل راسخ ومستتب هو الجيل الستيني بحيث لا يمكن لأي ناقد أو متابع للشأن الشعري سوى أن يحسب، على الأقل، هذه الفضيلة لمرحلة السبعينيات. كان يتوجب كبح جماح تلك البداية الوثابة من طرف نظام عقائدي فاسق لم يكن ليؤمن إلا بنفسه وبمعتقداته، انتهى به المطاف أخيرا إلى تمجيد الصوت الواحد وتشتيت الثقافة العراقية شذر مذر في كل مكان من العالم. كانت مطالب الثقافة العراقية، عبر أصوات الشعراء مثلا، استعادة البوليفوني العريق للثقافة وحرية استنشاق الهواء. كانت مشاكل العراق الإثنية والسياسية والدينية تحل عبر دفنها بالمقابر الجماعية ثم الزعم أن لا مشاكل في البلد. هذه الحجة سوف تستعاد بالمقلوب بعد سقوط النظام أثناء الاحتلال الأمريكي والقول هذه المرة إن نظاما يخترع المقابر الجماعية خير من الفوضى العارمة التي سببها الوضع الجديد بعد عام ٢٠٠٣، على المرء أن يكون صاحياً اليوم مثلما كان واعيا بالأمس. دياسبورا المثقفين العراقيين ليست صدفة في التاريخ، ولم يخرج أحد للنزهة ولا مهاجراً من أجل العمل في بلد كان هو نفسه مصدر استقطاب لملايين العمال العرب المهاجرين. هذه الدياسبورا هي نتيجة رفض لقمع اللغة وإذلال الخيارت باتجاه خيار واحدي وكسر شوكة البداهات لدى الكائن الإنساني وتكبيل حتى كلامه اليومي العادي.

لم يوحد بين المثقفين العراقيين ما يسمى الشتات، وما كانوا يسمونه المنفى وما يسمى اليوم في أدبيات البلد بالاغتراب. لم يوحّد الشتات بينهم لأنهم لم يخرجوا تحت راية موحدة منظمة. ولم تكن راية افتراضية مثل هذه لتعني أحداً على الإطلاق. يتعلق الأمر في الحقيقة بجماعات ثقافية متنوعة المشارب والاتجاهات والخيارات لم تطق الذل المُمارس على الكتابة وتحويلها إلى محض "عبد مؤدب" أو "جارية مثقفة". وفي ذلك الشتات توجد كل الأنماط الجمالية والخيارات الفكرية والشعرية التي تذهب من تطرف لآخر، من التقعيد الأدبي النهائي للأشكال الأدبية إلى الممارسة النصية التجريبية.

> أكثر من ربع قرن من الزمن خارج العراق قد قاد إلى بلورة شخصية محددة أخرى للشعر العراقي لم تُقرأ بعد كما يتوجب، بسبب شعور وطني عارم منفعل لا يريد البتة التفريق بين (ثقافة الداخل) و (ثقافة الخارج)، كأن تفريقاً من هذا القبيل سوف يصيب الثقافة العراقية بالمقتلة أو يساهم في تقسيم البلد.

إن المنافي، حسب تجربتنا، لا تسمح لأي ثقافة، بوصفها فعل جماعة، بالنمو والتطور لأن الثقافة تحتاج إلى استتباب جغرافي في المقام الأول. لا يمكن الزعم أن الثقافة الفرنسية تزدهر خارج حدود فرنسا. يوجد خارج حدود فرنسا مثقفون فرنسيون وليس ثقافة فرنسية. ولذلك سبب يتعلق بأن الثقافة بقدر ما تحتاج إلى مبدعين تحتاج إلى نقاد ومتلقين وردود فعل وضوابط مرنة وتمردات من جماعة تشترك بشرطين على الأقل: اللغة والجغرافيا. تسمح المنافي بازدهار الإبداع الفردي فحسب.

إن أكثر من ربع قرن من الزمن خارج العراق قد قاد إلى بلورة شخصية محددة أخرى للشعر العراقي لم تُقرأ بعد كما يتوجب، بسبب شعور وطني عارم منفعل لا يريد البتة التفريق بين (ثقافة الداخل) و(ثقافة الخارج)، كأن تفريقاً من هذا القبيل سوف يصيب الثقافة العراقية بالمقتلة أو يساهم في تقسيم البلد. وفي حين يرفض الرافضون هذا التفريق نظرياً فإنهم يستخدمونه عملياً في الكلام النقدي والممارسة الخفية أو العلنية. ونجده تفريقاً بديهياً محضاً ينطلق من شعور لا يقل عنفواناً وتأثراً وحبا للبلد لأنه توصيف موضوعي لا غير. ماذا نفعل لأجيال من الأولاد والبنات الذين وُلدوا خارج العراق ولا يعرفون حتى النطق بالعربية كما يجب، بل ذهب بعضهم بعيداً في منافيهم في دراسة المسرح والموسيقى والسينما والأدب، بل حتى في كتابة الشعر بالنسبة لمن كبر فحسب في الخارج. الخارج والداخل من هذه الزاوية ثراء للثقافة المحلية العراقية، مثلما مَن كتب بالفرنسية في الجزائر في وقت من الأوقات هو جزء من تاريخين أدبيين في آن واحد: الفرنسي والجزائري، أي يقع أيضاً في خارج وداخل الثقافة الوطنية الجزائرية.

علينا أن نتكلم عن ضرورة رصد الإبداع المتناثر في الدياسبورا. هذه المهمة محلية في المقام الأول. على أن واحدة من رذائل الثقافة العراقية- كما يبدو- تقع في الإلغاء المتبادل بين الأجيال خاصة، وفي تضخيم مشكلة الأجيال حتى أن كل قادم جديد، حتى وإن كان واهي البنية، سوف يرفع من شأن جيله. الجيل يصير رديفا للعائلة العربية أو القبيلة. كيف نرصد هذا النتاج الجوهري في الثقافة العراقية في ظل تنكّر وعدم اعتراف متبادل ومزاجيّة فائقة للعادة. إننا أمام مشكلة كبرى لا تتعلق بالرصد بل بالمعرفة أيضاً.

لشدة ولعه به .. كاتب فرنسي يكمل رواية " لم تكتمل " لألكسندر دوماس

ترجمة :عدوية الهلالي

لشدة اعجابه واهتمامه بالكاتب الكبير الكسندر دوماس ، يعد الفرنسي كلود سكوب متخصصا في ادب دوماس لدرجة اقدامه على انهاء رواية دوماس الاخيرة ...

يقول سكوب انه يعرف دوماس بشكل حميمي اكثر من كل اصدقائه الآخرين ولايمكن ان يفلت منه أي شيء عن حياته فقد قرأ كل رسائله وحل طلاسم كل سطوره ولم يغفل عن معرفة أي من عشيقاته او حتى عناوينهن في باريس ...انه يدرك مشاعره وحساسيته المفرطة بعد ان ذهب الى كل مكان كان دوماس قد زاره من مسقط رأسه في فيلرز وحتى مدينة كوكاز البعيدة ...

يعرف سكوب ايضا جيدا انه قد يرتكب جرما في نظر الحريصين على صفاء اللغة ونقائها عندما سينهي بقلمه ماكان دوماس المقدس لدى معجبيه قد بدأه قبل موته ، بهذه الطريقة اصدر مؤخرا كتاب (سلاما ..ايتها الامبراطورية) وهو العمل الاخير للكاتب الراحل ...ويشبه الكتاب بشكل واضح اسلوب دوماس الحقيقي والقوي ويتألف من (٧٣٠) صفحة تروي مغامرات خيالية لفارس سانت هيرمان ، وكان مؤلف (الفرسان الثلاثة) الشهير قد كتب بضعة فصول منها فقط ، بينما تحمل البقية آثار حبر قلم كلود سكوب بصفته مساعدا ادبيا لدوماس ، وهو ماأعلن عنه سكوب على غلاف الرواية حين كتب بحروف كبيرة "تاليف : الكساندر دوماس "وبحروف اصغر " شاركه :كلود سكوب "..ولهذا السبب ، لم تتم اثارة قضية شرعية الكتابة خاصة وان دوماس فقد في الفترة الاخيرة من حياته الكثير من حظوته واعتباره وتفوق عليه ستندال أو بلزاك وغيرهما، وجاء سكوب ليعمل على احيائه ويعيد اليه رفعته وعظمته ...

ويبدو ان القراء استحسنوا ماأقدم عليه سكوب طالما لم يكف عن متابعة دوماس منذ ان خصص له سيرة رائعة في عام ١٩٨٥ ، تلا ذلك نشره العديد من الدراسات النقدية والاهتمام بجميع كتبه وآخرها رواية (فارس سنات هيرمان) النابوليونية التي نشرتها صحيفة على شكل قصة متسلسلة قبل حوالي ١٤٠ عاما وقام سكوب ببيع (٧٥٠٠٠)نسخة منها حتى الآن ...

عمد سكوب الى احياء جمالية ادب دوماس بدءا من مراسلات دوماس لأبنه التي تضم ٣٠٠ رسالة تم جمعها وايداعها في المكتبة الوطنية وحتى ملاحقته الشهيرة لفارس سانت هيرمان في رواية (سلاما ايتها الامبراطورية) من كابري وحتى واترلو...

لأنجاز هذه الرواية ، احتاج سكوب الى دعامة قوية يستند إليها واستند إلى رسالة كان دوماس قد ارسلها الى مدير تحرير صحيفة (لو مونيتور) يكشف فيها اسرار نسيج روايته الجديدة ...، كما سعى للحصول على الفصول الثلاثة التي كتبها دوماس ووجدها عند تاجر المخطوطات الاصلية في براغ تييري بودن ...

يقول سكوب انه التزم بالنسق الذي سار عليه دوماس في تنفيذ بقية الفصول واهتم كثيرا بخاتمة الرواية كما سمح لنفسه بعمل كل شيء كان يمكن ان يعمله دوماس ..

ويؤكد انه تجنب استخدام المفارقات التاريخية مستسلما لأغراء فتنة الرواية وسحرها وخاض مغامرة لايسهل على رجال الادب خوضها مؤمنا بان دوماس ماكان ليرفض ذلك ابدا ...

الكسندر دوماس

وجهة نظر

نصوص تقاوم الزمن

عامر القيسي

في حديث اجراه الصحفي (كارلوس كاتانيا)مع الروائي الارجنتيني ، ارنستو ساباتا ، نشره في كتاب موسوم ب (ارنستو ساباتا بين الحرف والدم) قال فيه : ان الكتابة تعذبني جدا وهي ليست متعة .. وانني لا اميل الى نشر تلك التجارب غير الكاملة) .

اذا فالكتابة عذاب ومسؤولية وحكمة متكاملة ، فما الذي يحصل عندنا تحديدا بعد الانفتاح في مجالات النشر والطباعة والكتابة وغياب أي نوع من انواع الرقابة على المطبوع الادبي وغير الادبي ؟

في الحقيقة هو سؤال واحد لكنه معقد ومتشابك يدخل فيه السياسي بالمهني بحرية الراي، بالقوانين بمواثيق الشرف المتنوعة بالموقف الشخصي وبالقاريء اخيرا ، كل هذه العناصرمجتمعة ربما تكون كافية للاجابة على السؤال لكنني هنا سأتناول جانب الكاتب ونصه واحترامه لما يريد قوله .

حقيقة تقع يدك على عشرات النصوص الجديدة (قصة ،شعر ، رواية) فتقلبها من الغلاف الى الغلاف حتى تصدمك الخيبة لما يمكن ان يصبح الابداع عليه مستقبلا اذا استمرت هذه النوعيات من النصوص بغزو السوق الثقافية الداخلية، نصوص لاطعم لها ولا رائحة ولا لون ، لغة خارج اطار تهويمات لعبتها وهلوساتها ، افكار مكررة ومسروقة وليس هنالك سوى الكلمات التي لاتقوى ان تقول لك شيئا غير تعبيراتها البائسة عن هزالها اللغوي والتعبيري وازدرائها للقاريء .

نصوص متعجلة جدا كما لو انها فرصة استثمار غياب المعايير للتلاعب بالمعايير الابداعية نفسها ، فهذا يفصح عن روايته التي جعلت الواقعية السحرية اللاتينية جزءا من ماضي الرواية العالمية وذاك يكتب قصائده برعاية ناقده الذي يجعل من قصيدة الشمس السوداء لاوكتافيو باث ملحقا هامشيا لنصه الشعري الابدي اما القاص الفلاني وبلا غرور فان جيمس جويس قد خرج من بين سطوره !!

ارجو ان لايفهم من كلامي على انه دعوة لعودة مقصات الرقباء وفرض الوصاية على حرية القول والتعبير والكتابة خصوصا وان معظم ان لم يكن جميع المبدعين العراقيين - على الاطلاق هم ضحايا المقصات المشؤومة التي كانت تمنع تقديم الابداع الحقيقية للقاريء وتفتح الابواب للتهريج والمهرجين من ا نصاف وارباع الكتاب الذين حملوا لواء النص المبدع بالمقلوب واستحقوا عن (جدارة)القابهم من اوسمة الفوضى في زمن الفوضى و (النقاء) السياسي و(السلامة) الفكرية !

انها دعوة لاحترام النص واحترام القاريء الذي يدفع في النهاية ثمن المطبوع ، فالامجاد لاتقاس بكمية المنتج بل بنوعيته ، بمقاومته للزمن باحتفاظه بطاقة التاثير وايحاءاتها الانسانية ، فعمل واحد على سبيل المثال لـ(سرفانتس) خلّده وسيخلده حتى آخر لحظة حياة لكائن انساني في عمل رائع من طراز (دون كيشوت).

وهذه ليست مخاوفا ، وان كانت مشروعة ، على الابداع ، فالنص الابداعي لايمكن للعملة الرديئة ان تطرده والامثلة على قارعة الطريق.

ان استسهال الكتابة هو نوع من انواع الاحتقار لها بدل اجلالها وترخيص للنفس مقابل امجاد زائفة فضلا عن ان القاريء ليس بليدا فتعبر من خلال حساسية فلتره المعرفي نصوصا لاعلاقة لها بالابداع والمعرفة الانسانية تساعد على تخريب وتشويه الذائقة الادبية لجيل من القراء الجدد .

الكتابة قضية خارج المنطق انها انبثاق من الاسطورة والفلسفة والخيال ، انها ومضة من عالم يعج بالفوضى والثورة والالتباس ، لايمكن لكتابة ابداعية حقيقية ان تقدم نفسها بلا معارك طاحنة مع الموهبة والتأويل والمخاوف والقلق المسؤول والالتفاف اخيرا على ممانعا تها الاشد تراصا في عالم استسهل كل شيء بما في ذلك القتل المجاني !

احترام الكتابة والقاريء نمط وسلوك حضاريين ينبغي ان نبتدئ منهما قبل ان نفكر بكتابة رسالة الى صديق بعيد!.